من أسرار التعبير بكأن

فى القرآن الكريم

إعـداد

أ.د/ هاشم محمد هاشم

وكيـل كليـــة

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

من أسرار التعبير بـ "كأن" في القرآن الكريم

هي حرف تشبيه، وجمهور النحويين والبلاغيين على أنها مركبة من كاف التشبيه، وإن المؤكدة، فأصل قولنا: كان زيداً أسد، إن زيداً كالأسد ثم قدمت الكاف اهتماماً بالتشبيه ففتحت "إن" لأن المكسورة لا يدخل عليها حرف الجر، قال ابن جني: "ومن اصطلاح اللفظ كأن زيداً عمرو، اعلم أن أصل هذا الكلام زيد كعمرو ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه "إن" فقالوا: إن زيداً كعمرو، ثم إنهم بالغوا في توكيد التشبيه فقدموا حرفه إلى أول الكلام عناية به، وإعلاماً أن عقد الكلام عليه"[1]، وبقي معنى التشبيه الذي كان فيها، قال الزمخشري: "والفصل بينه وبين الأصل على أنك ههنا بان كلامك على الشبيه من أول الأمر، وثم بعد مضى صدره على الإثبات"[2] هذا هو الرأي الراجح والأشهر حتى قال ابن هشام: "لا خلاف في أن كأن" مركبة من "إن" وكاف التشبيه".

وذهب بعضهم إلى أن "كأن" بسيطة، واختاره صاحب رصف المباني وذكر له كثيراً من الأدلة[3].

ورجحه من البلاغيين ابن يعقوب المغربي[4] قال: "وكأن وهي

---

(١) الخصائص جـ١ ص٣١٧.

(٢) انظر المفصل جـ٨ ص٨١ شرح ابن يعيش.

(٣) انظر رصف المباني ص٢٨٤-٢٨٥.

(٤) انظر مواهب الفتاح جـ٣ ص٣٨٥ شروح التلخيص.

بسيطة، وقيل: إنها مركبة من الكاف، وأن المشـــددة، والأقـــرب الأول لجمود الحروف مع وقوعها فيما لا يصح فيه التأويل بالمصدر المناسب، لأن المفتوحة، وإنْ كان الثانى أشبه بحسب ما يبدو من صورة كأن".

واختلف العلماء فى معناها، وذكروا لها عدة معانٍ:

١- التشبيه المؤكد، وهو ما عليه جمهور البلاغيين والنحويين.

٢- يرى الكوفيون والزجاجى أن "كأن" تأتى للشك بمنزلة "ظننت" قالوا: إن كان خبرها اسماً جامداً كانت للتشبيه، وإن كان مشـــتقاً كـــانت للشك بمنزلة "ظننت" .. وكذا إذا كان خبرها فعـــلاً، أو جملـــة، أو صفة فهى للظن والحسبان نحو: كأنّ زيداً قام، وكأن زيداً أبوه قائم.

والصحيح أنها للتشبيه، فإذا قلت: "كان زيداً قائم كنت قد شـــبهت زيداً وهو غير قائم به قائماً، والشىء يشبه فى حالة ما بـــه فـــى حالـــة أخرى، وقيل: فى الكلام حذف والمعنى: كأن هيئة زيد هيئة قائم"[١].

وقد فصل هذا المعنى ابن يعقوب المغربى فى شرحه للتلخيص[٢]، ولخصه سعد الدين التفتازانى فى المطول بقوله: "والحق أنه قد تستعمل -كأن- عند الظن بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه ســـواء كـــان الخبر جامداً أو مشتقاً نحو: كأن زيداً أخوك، وكأنه فعل، وهذا كثير فـــى كلام المولدين"[٣].

---

(١) انظر الجنى الدانى ص٥٧٢، ٥٧٣.

(٢) انظر مواهب الفتاح جـ٣ ص٣٨٥، ٣٨٦ شروح التلخيص فيه كلام جيد.

(٣) المطول ص٣٢٨.

والجمهور على أن معنى التشبيه فيها لا ينعدم سواء أكان الخبر جامداً أم مشتقاً ويؤول دائماً لإيضاحه كقول البحترى:

يخفى الزجاجة لونها فكأنها ... فى الكف قائمة بغير إناء

فالبحترى قصد إلى وصف هيئة الشراب فى الإناء، وليس إلى وصف الشراب خاصة، ولا الإناء، وذلك أن الزجاجة إذا رقت وصفت ولم يكدرها شيء اشتد صفاؤها وبريقها، فإذا وضع فيها الشراب الرقيق اتصل الشعاعان، وامتزج الضوءان فلم تكد الزجاجة تبين للناظر، ولو كان الشراب كدراً ووضع فى الإناء لخفى، وكذا لو كان الإناء كدراً، لأن هذه الأشياء لا شعاع لها ولا ضياء، فلا يتصل أحدهما بالآخر.

وكقول كثير عزة:

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشى بها العصم زلت

فقد شبه نداءه إياها وإعراضها عنه بنداء الصخرة.

٣- وقيل: إنها تأتى للتحقيق دون تشبيه، وجعلوا منه قول عمر بن أبى ربيعة:

كأننى حين أمسى لا تكلمنى ... ذو بغية يشتهى ماليس موجوداً

ورد بأن التشبيه بين بأدنى تأمل، واستدلوا أيضاً بقول الشاعر:

فأصبح بطن مكة مقشعراً ... كأن الأرض ليس بها هشام

وأجيب بأن المعنى: أن بطن مكة كان حقه ألا يقشعر لأن هشاما

فى أرضه وهو قائم مقام الغيث فلما اقشعر صارت أرضه كأنها ليس بها هشام فهى للتشبيه ...

٤- وقيل: إنها تأتى للتقريب، وذلك فى نحو: كأنك بالشتاء مقبل، وكأنك بالفرج آتٍ، وقول الحسن البصرى: كأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل، والمعنى على تقريب إقبال الشتاء، وإتيان الفرج، وزوال الدنيا ووجود الآخرة.

والصحيح أن كأن فى هذا كله للتشبيه، وخرج الفارسى هذه المثل على أن الكاف فى "كأنك" للخطاب، والباء زائدة، والشتاء والفرج، والدنيا والآخرة اسم "كأن" والتقدير: كأن الشتاء مقبل، وكذا البواقى[1]. هكذا يخرج الجمهور كل ما وردت فيه "كأن" على التشبيه، وعلى هذا نستطيع أن نقول: يمكن حمل الآيات التى وردت فيها "كأن". على التشبيه والتشبيه من أدق أبواب البلاغة، وقد اتفق الأدباء على شرفه، وأنه إذا جاء فى أعقاب المعانى أفادها كمالا، وكساها حلة وجمالاً، وخاصة - التمثيل- قال المبرد فى الكامل: هو جارٍ فى كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد" ومن المعلوم أن التشبيه يكسب المعنى وضوحاً، ويضفى عليه شرفاً، ويمنحه قوة وتأكيداً، ويرفع الكلام إلى ذروة الإبداع فتتحرك القلوب إليه، وتنجذب النفوس نحوه فيقع الكلام منها موقع السحر الأخاذ، فينال حظا من الاهتمام والشرافة، وفى هذا

---

(١) الصناعيتين ص٢٤٣.

يقول أبو هلال العسكرى: "والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله، وموقعه من البلاغة بكل لسان".

كما يقرر هذه الحقيقة عبد القاهر الجرجانى ويزيد عليها[١].

ويقول ابن الأثير مبينا قيمة التشبيه وفوائده فى الكلام:[٢] "فالتشبيه يجمع صفاتٍ ثلاث هى المبالغة، والبيان، والإيجاز، إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة، وسبب ذلك أن حمل الشىء على الشىء بالمماثلة: إما صورة، وإما معنى يعز صوابه وتعسر الإجادة فيه ...

وأما فائدة التشبيه من الكلام فهى أنك إذا مثلت الشىء بالشىء، فإنها تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه، وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه، أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هى أحسن منها كان ذلك مثبتاً فى النفس خيالاً حسنا يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة أقبح منها كان ذلك مثبتا فى النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه".

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص٩٢-٩٦ ففيها بحث يمتع النفس والعقل.

(٢) المثل السائر ص١٥٥ الطبعة الأولى ١٩٣٥.

وإذا نظرنا إلىٰ التشبيه القرآنى وجدناه فى القمة من ذلك كله، فقد جاء على أكمل صورة وأعلاها مما جعل أسلوبه فوق طاقة البشر.

والتشبيه القرآنى يغذى فى الإنسان الجانبين الحسى والعقلى، "لأن طبيعة النفس الإنسانية قائمة على قوتين:

قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين، وينظر إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية، والمتعة الوجدانية"[١].

وقد قرر هذا المعنى الدكتور رجب البيومى يقول[٢]: "ولعل بلاغة التصوير هى البلاغة التى تجمع بين الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية، ففى بلاغة التصوير يتفاعل الإقناع المنطقى، والإقناع الشعورى القلبى، ولهذا كانت بلاغة التصوير من سبل القرآن الكريم إلى البيان الذى يتفجر منه الهدى والرحمة. والبشرى للمسلمين، ولهذا امتزج القرآن إلى مزج التأثير الوجدانى بحججه ودلائله الهادية لقوى الفكر فى الإنسان لتهيمن بلاغته على قوى الفكر والشعور فى الإنسان، وليغزو مناطق الشعور الإنسانى بتصويره كما يغزو مناطق التفكير العقلى بحججه،

---

(١) انظر النبأ العظيم ص١١٣، ١١٤.

(٢) انظر البيان القرآنى ص٧٨، ٧٩.

فجاء التصوير البياني في القرآن آية من الآيات في الروعة والإعجاز".

ومن المعلوم أن التشبيه من أهم ألوان البيان، وله تأثيره على الإنسان وخاصة في إجلاء الغامض، وتقرير المعنى، ولعل هذا سر من أسرار خلود التشبيهات القرآنية وملاءمتها لكل زمان ومكان.

وقد يكون هذا سراً من أسرار تأثير القرآن الكريم على الأعداء والأنصار على السواء ... فتأثير القرآن هذا بلغ مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النفوس، واستيلائه على قلوب المخاطبين استيلاء كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسحر وما هو بالسحر، لا يختص ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، بل يغزو القلب. من حيث لا يمكن لصاحبه رد، ويؤثر فيه من حيث لا يمكن له دفع، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، قصة إسلام عمر -رضي الله عنه- قول الوليد: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة...، قصة أبي سفيان، وأبي جهل والأخنس بن شريق وخروجهم ليلا لسماع القرآن، علما بأنهم كانوا يتعاهدون ألا يعودوا أكثر من مرة ومع ذلك يعودون، قصة سعد بن معاذ، وابن أخته أسيد، وبأي شيء فتحت المدينة أبالسيف والقتال أم بالقرآن؟ قالوا: فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن"..، وغير ذلك الكثير مما هو مشهور في كتب السيرة[1].

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص٧٧-٧٩، ٣٣٧.

والكفار يدركون تأثير القرآن فى نفوس سامعيه فإنهم كانوا يخشون استيلاءه على قلوب الناس عند سماعه، فكانوا يستقبلون الوافدين إلى مكة، ويحذرونهم من الاستماع إلى محمد ﷺ أو مجالسته، كل هذا لما يعرفون من تأثيره. بل كانوا إذا شرع ﷺ فى القراءة يخشون كل الخشية أن يصل إلى أذهانهم فلا يستطيعون رده عن الاستيلاء على قلوبهم فيسعون سعيهم لقطع هذا التيار من النفاذ إلى القلب، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ما السر فى هذا التأثير؟ يشير إلى ذلك سيد قطب -رحمه الله- فيقول(١)

"إن فى هذا القرآن سراً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص فى عبارات هذا القرآن، يشعر أن هناك عنصراً ما ينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحا، ويدركه بعض الناس غامضا، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر ينسكب فى الحس يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى؟ أهو الصور والظلال التى تشعها؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص المتميز من إيقاع سائر القول من اللغة؟ أهى هذه العناصر كلها؟".

وبعد هذه الجولة القصيرة نستطيع أن نقول: إن التشبيه القرآنى معجز لا بلفظه، ولكن بنظمه وتركيبه، وصوغه الذى يسمو إلى طبقة فوق طاقة البشر.

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٦ ص٣٣٩٩.

وإذا كان للتشبيه هذا التأثير، وهذه المكانة، فمن أهم أدواته وآكدها "كأن" يقول عنها عبد القاهر -فى سياق كلامه عن اللفظ والنظم- "إذا قصدت تشبيه الرجل بالأسد تقول: زيد كالأسد، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: كأن زيداً الأسد، فتفيد تشبيهه بالأسد أيضا إلا أنك تزيد فى معنى تشبيهه زيادة لم تكن فى الأول، وهى أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه، وأنه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد، ولا يقصر عنه حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى، وإذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة، وهذا الفرق إلا بما توخى فى نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع "إن" وإذا لم يكن إلى الشك سبيل أن كان ذلك بالنظم فاجعله العبرة فى الكلام، ورض نفسك على تفهم ذلك وتتبعه، واجعل فيها أنك تزاول منه أمراً عظيماً لا يقادر قدره، وتدخل فى بحر عميق، لا يدرك قعره"[1].

ويقول فى موطن آخر "تقول زيد كالأسد أو مثل الأسد، أو شبيه بالأسد فتجد ذلك تشبيها غفلا ساذجا ثم تقول: كأن زيداً الأسد فليكون تشبيها أيضاً إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيداً: لأنك ترى له صورة خاصة وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت إنه من الشجاعة وشدة البطش، وأن قلبه قلب لا يخامره الذعر، ولا يدخله الروع بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه".

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٩٩ ت رضيد رضا، ص٣٢٦.

هذا كلام عبد القاهر يدل على أن "كأن" أقوى أدوات التشبيه وآكدها فى الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به، ولذلك فهى تستعمل حيث يقوى التشبيه حتى يكاد الرائى يشك فى أن المشبه هو المشبه به أو غيره، ولذا حكى القرآن الكريم لنا قول بلقيس فى قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ..﴾ [النمل ٤١-٤٢]، وقد كان فعلا هو ولبيان شدة الشبه استعملت "كأن".

وبعد هذه الجولة السريعة التى ذكرنا فيها شيئا عن بلاغة التشبيه عامة، والتشبيه القرآنى خاصة، وظهر خلالها مكانة "كأن" بين أدوات التشبيه آن الأوان أن نذكر بعض الآيات التى وردت فيها "كأن".

وقبل ذكر الآيات أبادر وأقول:

لقد لاحظت أن أكثر الآيات التى ورد فيها التشبيه بـ"كأن" فى القرآن الكريم كانت من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس، ولعل السر فى ذلك أن "كأن" أقوى أدوات التشبيه، وتشبيه المحسوس بالمحسوس أكثر إيضاحا، كما نلمح فيه قوة ارتباط بين المشبه والمشبه به، وكلما كانت الصلة بينهما قوية جمل التشبيه، وحلا فى الصورة، وحسن موقعه فى النفوس. كما أنى لاحظت أن كثيراً من هذه الصور، صور مألوفة منتشرة فى كل زمان ومكان، وجلها من قبيل التشبيه المفرد الذى يعطى صفة السرعة والوصول إلى الغاية فى أقرب وقت، والتصوير الدقيق

الرائع فى صفة الوضوح، وتمام الرؤية وتمثلها فى لقطة سريعة أخاذة.

"والتشبيه فيها -كما هو الشأن فى كل تشبيهات القرآن- جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه فعمله فى الجملة أنه يعطى الفكرة فى صورة واضحة مؤثرة، فهو لا يمضى إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتى ضرورة فى الجملة يتطلبه المعنى فيصبح واضحاً قوياً[1]" يبلغ به الأسلوب القمة فى البلاغة والفصاحة والبراعة والبيان.

ولعل هذا يجعلنا لا نكون مع إمام البلاغة وشيخها عبد القاهر الجرجانى ومن سار على نهجه حين جعل "كل تشبيه رجع إلى وصف أو صورة، أو هيئة من شأنها أن ترى وتبصر أبداً، فالتشبيه المعقود عليه نازل مبتذل، وما كان بالضد من هذا، وفى الغاية القصوى من مخالفته، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع"[2].

لأننا نجد فى القرآن الكريم كثيراً من التشبيهات المحسوسة التى تتسم بالقرب فهل معنى هذا أنها أقل درجة من البعيدة الخفية؟.

نحن لا ننكر فضيلة التشبيه البعيد الغريب، ولا نجحد مقامه، ولكن لكل مقام مقال، والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإذا كان المقام يقتضى الوضوح وقوة التأثير، فالصورة المحسوسة هنا هى البلاغة،

---

(١) انظر من بلاغة القرآن ١٩٨.

(٢) انظر أسرار البلاغة ١٩٠، ١٩١، وبغية الإيضاح.

وهى الأولى لما لها من قوة التأثير، وكما أن وقعها على النفس يكون أشد، والقرآن الكريم تحدى العرب -وهم أهل الفصاحة، وأئمة البيان- وفيه كثير من التشبيهات المحسوسة، ولو وجدوا فى هذه التشبيهات مغمزاً لانتهزوا الفرصة وهاجموه، لكنهم أسلموا قيادهم لإعجازه.

وقد تعرض الدكتور محمد أبو موسى لهذه القضية فحسم الموقف فى حسن عرض وقوة دليل[1]: بين أن من علامة التفوق فى التشبيه البعد والخفاء والتسمع إلى الأصوات الهامسة، وإبرازها وقرنها بغيرها لكن ليس معنى هذا الحكم على التشبيهات القريبة بالابتذال كما فعل أسلافنا، لأن القذف بالفكرة فى قلب السامع من أقرب طريق، وأبين دلالة، قد يكون غرضاً من أغراض الكلام.

ثم بين أن القرآن الكريم مع تشبيهاته الواضحة الشائعة أعجز العرب أهل البيان، فهو يشبه بالبعوضة، والحمر، والكلب يلهث، ومر السحاب والظلة، وكلها شائع أشد الشيوع، وعرض السموات والأرض وهو متقرر فى البداية -كما يقول الجرجانى- وكل هذه التشبيهات مصيبة حد الإصابة، لأنها جاءت فى صورة تقع دلالتها فى القلوب فى سرعة وقوة.

والحق مع الرمانى الذى كان أدق من عبد القاهر والمتأخرين؛ لأنه لم يحكم على القرب بالابتذال، بل رأى أن قوة ظهور المشبه، وكثرة

---

(١) انظر التصوير البيانى ص١٥٤، ١٥٥.

تكراره وسرعة إدراكه ربما كان مغزى التشبيه. وسار على نهجه أبو هلال العسكرى[1].

ولنأخذ الآن فى ذكر بعض الآيات التى جاء التشبيه فيها بـ"كأن" وقد وردت فى القرآن الكريم تسعا وعشرين مرة سواء كانت متصلة بضمير أم لا، مخففة أو مشددة.

ومن الآيات التى وردت فيها "كأن" وكان التشبيه فيها بأعجاز النخل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ، تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦،٧].

فالتشبيه فى الآيتين مع وضوحه، وقربه فى أعلى درجات البلاغة، وهو جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه، المعنى هو الذى طلبه ليعطى الفكرة فى صورة واضحة مؤثرة، وبلاغة التشبيه فى إصابة الهدف، ودقة التصوير والصدق بعيدا عن المبالغة، فالتشبيه هنا يصور رفع الناس بقوة الريح الشديد فوق الأرض وارتطامهم وخبطهم بها فى قوة واستئصال لهم فى سرعة، فى مشهد يسيطر عليه العنف والرعب والهلاك، وتدمدم فيه الموت والفناء بقلع النخل وسقوط أعجازها على

---

(١) انظر النكت ص٨٤، والصناعتين ص٢٤٧.

الأرض بسبب الريح، تضيف آية الحاقة أن النخل خاوية، أى خالية من الحياة والنفع.

وقد يظن بعض الناس أن الصورة مكررة فى الآيتين، ولكن الواقع أن هناك فرقاً واضحاً بين الآيتين لمن يتأمل ويتذوق بلاغة القرآن.

فآية القمر تركز على لحظة الاستئصال والهلاك، وتصور المشهد كأنه يقع الآن، ولذلك كان الجرس فيه الضربات القوية الحادة، والإيقاع الذى يسجل مشاهد الإبادة فى هولها، وفزعها، ولك أن تتخيل أبعاد الصورة المفزعة المهولة، وأنت تسمع الفاصلة التى تشبه الضربة السريعة القاضية فى "يوم نحسن مستمر" أى شؤم مستمر عليهم إلى أن أهلكهم، وفى قوله ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾ التى توحى بالقوة وأسرعة فى نفاذ الأمر "منقعر" أى منقلب، أصله من قعر النخلة فانقعرت أى قطعها من أصلها، وهى تصور لحظة القلع والارتفاع والارتطام، وصوت الاصطدام والهلاك فى تتابع سريع مذهل، لا يحتاج إلى حرف مد قبل الفاصلة، فالمد يعطى زمناً أطول لا يتناسب مع الهلاك الخاطف السريع.

والتعبير بالمضارع فى "تنزع" يوحى باستحضار الصورة، مع ما يوحيه النزع من المقاومة والتشبث من القوم والعنف، والتغلب والقدرة القاهرة من الريح .. روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر، وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم[1]" ووضع الظاهر موضع المضمر

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ٨ ص١٧٠.

"تنزع الناس" يوحى بالشمول، قال أبو حيان: "وجاء الظاهر مكان المضمر ليشمل ذكورهم وإناثهم إذ لو عاد بضمير المذكورين لتوهم أنه خاص بهم"(١).

أما آية الحاقة فتركز على ما صاروا إليه من هلاك وبلى، وما أصاب أجسادهم من يبس، وجفاف، وأجوافهم من فراغ حتى صاروا "كأعجاز نحل خاوية".

ويلاحظ أنها بعد أن وصفت الريح بالصرصر كآية القمر، والصرصر: الشديد البرد جداً، وأصله صر، وصرصر فى متكرر البرد يقال: صرَّ الشيء وصلَّ إذا سمعت صوته غير مكرر، فإذا أريده مكروه قيل: صرصر وصلصل، وصفته بـ"عاتية" أى شديدة، وهو تعبير مجازى له وقعه والتعبير بالعتو أبلغ، لأن به الشدة مع القهر والغلبة، فهذه الريح المدمرة يشبه خروجها عن حدها العتو والجبروت، كما أنها حددت أيام الحسوم، وهى الأيام التى انقطع خيرها، وكلها شؤم وكلمة "صرعى" فى المشبه توحى بأن العذاب صرعهم وخيم عليهم الموت، ودقت أعناقهم وكلمة "خاوية" فى المشبه به توحى ببعد المسافة، وقدم القطع، وأن جذوع النخل نخر فيها الفساد من عهد طويل، وفرغت جوفها يد البلى من أمد بعيد.

وبعد هذا التحليل الموجز نستطيع أن نقول: إن بين الصورتين

---

(١) البحر المحيط جـ٨ ص١٧٩.

فرقاً، فآية القمر تصور المشهد حال وقوعه، وتجعلنا نشاهد المأساة وقت وقوعها، ونرى الأحداث حية قوية شديدة ومدوية صارخة.

وآية الحاقة تصور المشهد بعد وقوعه، وتجعلنا نشاهد الفناء الذى وقع والخواء الذى حل، والموت الذى شاع، والسكون الذى خيّم لنأخذ العبرة فى صمت واعظ، والتذكر فى تأمل واع، فكانت الصورة مشوبة بالقوة والتهويل والعنف.

ولقد أدرك الرمانى الفرق بين الصورتين فجعل آية القمر من المشبه التى لم تجربه عادة يقول فى آية القمر: وهذا بينا قد أخرج مالم تجربه عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما"(١).

وسار على هذا النهج أبو هلال العسكرى، فقد عدها من هذا النوع ثم علق عليها بقوله: "فاجتمع الأمران فى قلع الريح لهما، وإهلاكهما، والتخوف من تعجيل العقوبة"(٢).

وقد جعل الرمانى آية الحاقة من التشبيه الذى لا يعلم بالبديهة يقول فى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: "وهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها، وقد اجتمعا فى خلو الأجساد من الأرواح، وفى ذلك الاحتقار فى كل شىء يئول به الأمر إلى ذلك المآل"(٣).

---

(١) النكت ص٨٣ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٢) الصناعتين ص٢٤٧.

(٣) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص٨٤.

وقد علق الدكتور محمد أبو موسى على ملاحظة الرمانى بقوله[١]: "وخلو أعجاز النخل من الحياة والنفع أمر بدهى فى إدراك الناس، ثم هو وصف ثابت للجذوع الخاوية بخلاف اقتلاع الجذوع وطرحها على الأرض كأنها مصروعة، فإن ذلك معنى فى الجذوع ليس من أوصافها الثابتة، وإنما هو وصف طارئ، ولهذا عده الرمانى من القسم الثانى"[٢].

والنخل فى آية القمر موصوف بمذكر "منقعر" وفى آية الحاقة موصوف بمؤنث "خاوية" لماذا؟.

النخل اسم جنس يذكر ويؤنث، وما دام يجوز فيه التذكير والتأنيث فما السر البلاغى فى اختيار التذكير فى القمر، والتأنيث فى الحاقة؟

أجاب عن ذلك أبو حيان فقال[٣]: "النخل اسم جنس يذكر ويؤنث، وإنما ذكر هنا لمناسبة الفواصل، وأنث فى قوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ لمناسبة الفواصل أيضا".

ومراعاة الفواصل غرض بلاغى قال به كثير من علماء البلاغة،

---

(١) الإعجاز البلاغى ص١١٠.

(٢) المقصود بالقسم الثانى مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بها، لأن الرمانى جعل التشبيه على أنواع منها: إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، ومنها إخراج مالم تجر به العادة إلى ما جرت به عادة، ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها: إخراج مالا قوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة. وجعل أبو هلال العسكرى هذه الأربعة أجود أنواع التشبيه.

(٣) البحر المحيط جـ٨ ص١٧٩.

فكون الآية تتناسب فى الجرس والنغم مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة، وتتفاعل معها لتكون وحدة الفاصلة، وتتلاءم فى الموسيقى، فهذا نغم خارجى له وقعه فى الكلام، ومع هذا التناسب فى الجرس والاتحاد فى التناغم، ومراعاة الفواصل نشعر أن التذكير فى فاصلة آية القمر يعطى القوة فى الوقع، والهول فى التصوير، وشدة الأثر، فالقوة فى "نخل منقعر" أشد وأعلى رعبا وصوتا من قولنا "نخل منقعرة".

ونشعر أن التأنيث فى آية الحاقة يعطى صوتاً عاليا وطويلا يتناسب مع مقام الرهبة والفناء والعبرة والعظة.

بقى أن نشير ما السر فى اختيار أداة التشبيه "كأن" دون غيرها؟

أرى أن السر فى اختيار "كأن" هنا إشارة إلى قوة الشبه، لأنها أقوى وأبلغ فى إلحاق المشبه بالمشبه به .. وأنك لا تكاد تفرق بين المشبه والمشبه به قال أبو السعود: [1] "شبهوا بأعجاز النخل، وهو أصولها بلا فروع؛ لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثا بلا رءوس".

وقال أبو حيان: [2] "شبههم بأعجاز النخل المنقعر إذ تساقطوا على الأرض أمواتا، وهم جثث عظام طوال .. والأعجاز الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها".

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٨ ص١٧٠، وانظر الكشف جـ٤ ص٣٩.

(٢) البحر المحيط جـ٨ ص١٧٩.

فهذا يشير إلى قوة التشبه، أجسام طوال بلا رءوس، وآية الحاقة تضيف تقادم الزمن، فهم هياكل فارغة من الداخل "كأعجاز النخل الخاوية" أى الخالية من الداخل لعل هذا هو السر فى اختيار "كأن" والله أعلم.

ننتقل من عاد إلى اليهود -لعنة الله عليهم- ومن الآيات التى وردت فى شأنهم، وأداة التشبيه فيها "كأن" قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

جاءت هذه الآية فى سياق الآيات التى تتحدث عن اليهود وكفرهم وتعصبهم وكراهيتهم للناس، فالضمير فى قوله "جاءهم" لليهود، ورسول الله هو محمد[١] ﷺ وفيه التفات من الخطاب فى قوله: "ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ..." إلى الغيبة "رسول" ووصف بأنه "من عند الله" تعظيماً لشأنه، إذ الرسول على قدر المرسل، ووصف ثانيا بأنه "مصدق لما معهم" وفيه مزيد من التشنيع عليهم، إذ من الواجب عليهم أن يؤمنوا تبعاً لذلك، قال أبو حيان: [٢] "وتصديقه أنه خلق على الوصف الذى ذكر فى التوراة، أو تصديقه على قواعد التوحيد، وأصول الدين، وأخبار الأمم والمواعظ والحكم، أو تصديقه إخباره بأن الذى معهم هو كلام الله، وأنه

---

(١) وقيل: عيسى عليه السلام.

(٢) البحر المحيط جـ١ ص٣٢٥.

المنزل على موسى - عليه السلام- أو تصديقه إظهار ما سألوا عنه من غوامض التوراة، "لما معهم" التوراة، وقيل: جميع ما أنزل إليهم من كتب".

ومع ذلك "نبذوه وراء ظهورهم" وهذا مثل يضرب لمن أعرض عن الشيء جملة تقول العرب جعل هذا الأمر وراء ظهره، ودبر أذنه، قال الفرزدق:

تميم بن مر لا تكونن حاجتي بظهر ولا يعيا عليك جوابها

وقالت العرب ذلك، لأن ما جعل وراء الظهر زال النظر إليه، ومنه "واتخذتموه وراءكم ظهريا ..".

والمقصود -والله أعلم- أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم، ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة، فالتعبير استعارة تمثيلية فقد شبه تركهم كتاب الله وإعراضهم عنه بحالة شيء يرمى به وراء الظهر، والجامع عدم الالتفات، وقلة المبالاة، ثم استعار المشبه "وراء ظهورهم" للمشبه.

فإذا حمل "كتاب الله" على التوراة كان كناية عن قلة مبالاتهم فقط. لأن النبذ الحقيقي لم يكن منهم، والحمل على القرآن لا ينافي حقيقة النبذ فهو كطويل النجاد[1].

---

(١) انظر حاشية الشهاب جـ٢ ص٢١٤.

وإضافة الكتاب فى قوله تعالى: "كتاب الله" إلى الاسم الكريم تعظيماً له، وتهويلا لما اجترءوا عليه من الكفر، ولهذا جاء التبكيت والتحقير لهم فى ختام الآية "كأنهم لا يعلمون" جملة حالية[١]، وصاحب الحال "فريق" والعامل فى الحال نبذ وهو تشبيه لمن يعلم بمن يجهل، لأن الجاهل بالشيء لا يحفل به، ولا يعتد به، لأنه لا شعور له بما فيه من المنفعة، ومتعلق العلم محذوف "كأنهم لا يعلمون" أنه كتاب الله، لا يداخلها فيه شك لثبوت ذلك عندهم وتحققه، وإنما نبذوه على سبيل المكابرة والعناد[٢].

ولما كان المراد تحقيق التشابه استعمل "كأن" التى هى أقوى وأبلغ أدوات التشبيه فى الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به.

ومن الآيات التى وردت فى شأن اليهود قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ..﴾ [الأعراف ١٧١].

أى قلعناه ورفعناه فوقهم كالغمامة التى تظلهم فينتفعون به فى أن يظلهم من الحر والبرد، فوجه الشبه -كما قال أبو هلال العسكرى- الانتفاع بالصورة، وجعله الرمانى من صور التشبيه الذى أخرج فيه مالم تجر به العادة إلى ما جرت به عادة. لأن صورة رفع الجبل فوق

---

(١) أكثر مواقع "كأن" فى القرآن الكريم وقوعها مع معموليها جملة حالية سواء أكانت مشددة أم مخففة أم موصولة "بما" الكافة، انظر دراسات لأسلوب القرآن جـ١ ص٣٣٦.

(٢) انظر البحر المحيط جـ١ ص٣٢٥.

الرءوس شيء غير مألوف، لأننا لم نر قط جبلا قد اقتلع من مكانه، ورفع فوق رءوس قوم كما حدث لليهود حين تمردوا على أحكام التوراة فقد حدث أن رفع الله الطور على رءوسهم بمقدار عسكرهم، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها، وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من سقوطه ولذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون هى السجدة التى رفعت عنا العقوبة"(١).

واستعمال "كأن" يشير إلى قوة التشابه حتى أن الناظر يرى الجبل فوقهم كأنهم مظلة تظلهم، وانظر إلى دقة التعبير الذى يوحى بهذا فى قوله "وظنوا أنه واقع بهم" وفى الآية أعظم العبر لمن فكر فى مقدورات الله -عز وجل- عند مشاهدته لذلك، أو علمه به.

وإذا كنا فى سياق الحديث عن اليهود فلنذكر آية تتعلق بموسى -عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

"وألق" عطف على بورك منتظم معه فى سلك النداء، أى نودى "أن بورك" وأن "ألق عصاك" حسبما نطق به قوله تعالى فى سورة القصص: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بتكرير حرف التفسير كما تقول: كتبت إليه أن حج، وأن اعتمر، وإن شئت أن حج واعتمر فحذف من الثانى لدلالة الأول

---

(١) انظر الكشاف جـ٢ ص١٢٩.

عليه "فلما رآها تهتز" الفاء فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ بعد قوله ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ كأنه قيل: فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها، فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب "كأنها جان" أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية، إما من مفعول رأى مثل "تهتز" أو من ضمير "تهتز" على طريقة التداخل "ولى مدبرا" من الخوف "ولم يعقب" أى لم يرجع على عقبه، من عقب المقاتل إذا كر بعد الفر، وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به كما ينبئ عنه قوله "يا موسى لا تخف" أى من غيرى ثقة بى أو مطلقاً لقوله تعالى: "إنى لا يخاف لدى المرسلون" فإنه يدل على نفى الخوف عنهم مطلقاً لكن لا فى جميع الأوقات بل حين يوحى إليهم كوقت الخطاب، فإنهم حينئذ مستغرقون فى مطالعة شئون الله -عز وجل- ولا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا، وأما سائر الأحيان فهم أخوف الناس منه -سبحانه- أولا يكون لهم عندى سوء عاقبة ليخافوا منه[1]، والشاهد فى الآية تشبيه العصا بالجان فى شدة الحركة وخفتها وسرعتها وكلمة "تهتز" توحى بهذا الاضطراب الشديد فى الحركة وللحيوان حركة تدل عليه إذا رؤى عليها لا يشك فى أنه حيوان بها، وهو التصرف بالنفس مع كون الشىء على البنية الحيوانية، ولعل هذا هو السر فى اختيار "كأن" التى هى أقوى أدوات التشبيه فى الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به.

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ٦ ص٢٧٤.

وهذا التشبيه هو ما عرف عند البلاغيين بالتشبيه الوهمى، وهو ماليس مدركاً بشىء من الحواس الظاهرة مع أنه لو أدرك لم يدرك إلا بها[1] ومنه قول امرئ القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولهذا التشبيه أثر بالغ فى النفس لما رسخ فى النفوس من صورة قوية للجان تمثله شديد الحركة لا يكاد يهدأ ولا يستقر، وما رسخ فى النفوس أيضاً من الخوف والرعب، والتنفير منه.

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢] الثعبان الحية الضخم الطويل، وأصله من ثعبت الماء أثعبه ثعبا إذا فجره، فسمى بذلك لأنه يجرى كجرى الماء عند الانفجار "مبين" أى ظاهر أمره لا يشك فى كونه حية، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الأصل كذلك.

والجمع بينهما أنه شبه بالجان فى الاهتزاز وخفة الحركة وسرعتها، وشبه بالثعبان فى الضخامة والعظم، أى خلقها خلق الثعبان العظيم.

وذكر فى تشبيهها بالجان معنى آخر، هو أن الحية إذا هرمت

---

(١) انظر بغية الإيضاح جـ٣ ص١٧.

صغرت فى بدنها وخفت فى حركتها، فكأن المراد أنها فى صورة الثعبان القديم الذى تضاءل جسمه، ولطفت أجزاؤه، وهو أعظم فى الدلالة، وأغرب فى المعجز، قال الشاعر يصف حية:

داهية قد صغرت من الكبر ... طويلة الأطراق من غير خفر

كأنها قد ذهبت بها الفكر ... شقت لها العينان طولا فى شتر

مروتة الشدقين حولاء النظر ... جاء بها الطوفان أيام زجر[1]

وإذا كنا ذكرنا بعض الصور التى صور الله فيها هلاك عاد قوم هود، وبعض الصور التى صور فيها وقاحة اليهود وتعصبهم، وتجهلهم للرسالة المحمدية.

نذكر الآن بعض الصور التى صور فيها المنافقين والكفار فى حالات معينة يقول الله -عز وجل- فى وصف المنافقين بتمام الصورة، وحسن الإبانة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

"وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم" لضخامتها، ويروقك منظرهم لصباحة وجوههم "وإن يقولوا تسمع لقولهم" لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم، وكان ابن أُبَيّ جسيما فصيحا يحضر مجلس رسول الله ﷺ فى نفر من أمثاله، وهم رؤساء المدينة وكان -عليه السلام-، ومن

---

(١) الشتر: انقلاب الجفن من أعلى إلى أسفل وانشقاقه، ومروتة الشدقين: واسعتهما مشقوقتهما. وانظر الجمان فى تشبيهات القرآن ١٧٤.

معه يعجبون بهياكلهم، ويسمعون كلامهم، قيل: الخطاب لكل أحد ممن يصلح للخطاب، ويؤيده قراءة يسمع بالبناء للمجهول[١].

"كأنهم خشب مسندة" شبهوا فى جلوسهم فى مجالس رسول الله ﷺ فى استنادهم، وما هم إلا أجرام خالية من العلم والإيمان والخير بخشب نخرة متآكلة إلا أنها مسندة إلى الحائط، يحسب من رآها أنها صحيحة سليمة إلا أنها فاسدة لا ينتفع بها، لأن الخشب إذا انتفع به كان فى سقف، أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، ما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبهوا به فى عدم الانتفاع ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان شبهوا بها فى حسن صورهم وقلة جدواهم[٢]. قال حسان بن ثابت:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم خلق البغال وأحلام العصافير

ومن أبيات الأمثال قولهم:

ترى الفتيان كالنخل ولا تعلم بالدخل

ومن مشهور كلامهم قولهم لتارك التفهم والاستبصار كأنه بهيمة، وكأنه صنم، وكأنه حجر[٣].

فما أروع هذا التصوير الذى صور القرآن الكريم فيه المنافقين فى

---

(١) انظر كتب التفسير وخاصة تفسير أبى السعود جـ٨ ص٢٥٢.

(٢) انظر حاشية الشهاب جـ٨ ص١٩٩ ، الكشاف جـ٤ ص١٠٩.

(٣) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص٣١٣.

حسن مظهرهم وفساد مخبرهم، وقلة فهمهم بخشب خاوية فاسدة لا نفع فيها ويؤكد هذا فيأتى بأداة التشبيه "كأن" التى تدل على قوة الشبه.

ومن الآيات التى صور فيه المشركين، وهم يعرضون عن القرآن، وعن سماع ما فيه من عظات قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر ٤٩-٥١].

"فما لهم عن التذكرة معرضين" استفهام إنكارى ينكر عليهم إعراضهم عن القرآن الكريم وما فيه من عظات بغير سبب، و"معرضين" حال من الضمير فى الجار والمجرور الواقع خبر لما الاستفهامية، وعن متعلقة به أى إذا كان حال المكذبين به على ما ذكر، فأى شىء حصل لهم معرضين عن القرآن مع تعاضد موجبات الإقبال عليه، وتآخذ الداعى إلى الإيمان به، "كأنهم حمر مستنفرة" حال من المستكن فى معرضين بطريق التداخل والمستنفرة: الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له وحملها عليه، وقرئ بالفتح، وهى المنفرة المحمولة على النفار "فرت من قسورة" القسورة الأسد، يقال: ليوث قساور، وهى فعولة من القسر وهو القهر والغلبة وأصله الأخذ بالشدة من قسره قسراً كقولك قهره قهرا، واقتسره اقتساراً قال الشاعر:

قد يحطم الفحل قسراً بعد عزته ... وقد يرد على مكروهة الأسد

شبههم فى إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها، وفى تشبيههم بالحمر

تهجين وتقبيح لهم وشهادة عليهم بالبلادة، وقلة العقل، وسخرية منهم.

ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها فى العدو إذا رابها رائب، ولذلك أكثر تشبيهات العرب فى وصف الإبل، وشدة سيرها بالحمر وعدوها إذا وردت ماء فأحست بقانص[١].

وبهذا يتضح لنا دقة التشبيه وبلاغته عندما يصف الحمر بأنها مستنفرة "فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة وإسراعهم فى إبعاد أنفسهم عنها إسراعاً يمضون فيه على غير هدى، فوصف الحمر بأنها مستنفرة، تحمل نفسها على الفرار، وتحثها عليه، يزيدها فى هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها، فهى تتفرق فى كل مكان، وهى تجرى غير مهتدية فى جريها، أولا ترى فى صورة الحمر وهى تجدّ فى هربها لا تلوى على شىء تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة فارين أمام الدعوة لا يلوون على شىء سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية"[٢].

ومن أجل إرادة قوة الشبه استعمل القرآن الكريم "كأن" وهذا التشبيه يصور الحالة النفسية لهؤلاء المشركين الذين يعرضون عن سماع القرآن. وقد أكد الله -عز وجل- إعراضهم عن سماع القرآن

---

(١) انظر الكشاف جـ٤ ص١٨٧، وتفسير أبى السعود جـ٩ ص٦٢.

(٢) انظر من بلاغة القرآن ص١٩٩.

الكريم فى آية أخرى قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

فالمقصود من التشبيهين بيان أنه ليس لتلاوة القرآن عليه من فائدة، وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل، فالتشبيه الثانى جاء مؤكدا للتشبيه الأول، وهو أبلغ فى دلالته على المعنى قال عبد القاهر:(١) "لم يعطف "كأن فى أذنيه وقرا" لأن المقصود من التشبيه بمن لم يسمع إلا أن الثانى أبلغ وآكد فى الذى أريد، وذلك أن المعنى فى التشبيهين جميعاً أن ينفى أن يكون لتلاوة ما تلى عليه من الآيات فائدة معه، ويكون لها تأثير فيه، وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل، ولا شبهة فى أن التشبيه بمن فى أذنيه وقر أبلغ وآكد فى جعله كذلك من حيث كان لا يصح منه السمع -وإن أراد ذلك- أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة من الذى يصح منه السمع إلا أنه لا يسمع إما اتفاقاً، وإما قصداً إلى أن لا يسمع فاعرفه وأحسن تدبيره".

ومن الآيات التى صورت الحالة النفسية والمعنوية للشرك وكان التصوير فيها دقيقا كما هو شأن القرآن الكريم فى كل صوره قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج ٣١].

فقد شبه المشرك الذى تسبب فى هلاك نفسه، وإهدار وجوده مطلقاً

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٧٦.

بحال الذى خر من السماء، ولم يسقط على الأرض، فيكون له وجود، ولكنه كان بين أمرين: إما أن تتخطفه طيور الجو الجارحة وتمزقه إرباً أو يذهب على متن الريح إلى مهاويها السحيقة ... والصورة صورة غريبة كما ترى إنسان يخر من السماء، ولم يسقط على الأرض، وإنما يضيع بين السماء والأرض. وانظر إلى دقة التعبير بكلمة "خر" وكلمة "تهوى" وما فيهما من إيحاء وتصوير لحالة نفسية ممزقة.

قال الزمخشرى: يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال: من يشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرَّ من السماء فاختطفه الطير فتفرق مزعا فى حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطارح البعيدة، وإن كان مفرقا، فقد شبه الإيمان بعلو فى السماء والذى ترك الإيمان، وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت فى بعض المهاوى المتلفة".

وابن المنير يفسر السماء التى خر منها المشبه به بأنها الإيمان الذى عرفه، وعليه تكون الآية فى شأن المرتد، أو تكون السماء هى قوى الإنسان وقدراته التى تمكنه من الإيمان، والعلوّ به وتكون الآية فى شأن

الكافر الذى لم يؤمن من قبل"[١].

وهذه الصورة يمكن أن تعد من الصور الخيالية باصطلاح البلاغيين، لأن عناصرها، وهى الرجل، والسماء والطير والريح كلها كائنة فى الوجود ولكنها فى هيأتها هذه ليست كائنة فى الوجود، رجل يسقط من السماء "فتخطفه الطير، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق" الصورة من حيث التشابك والتداخل صورة خيالية، وكأن أشارت إلى قوة الشبه لأنها أقوى أدوات التشبيه فى إلحاق المشبه بالمشبه به.

والآن ننتقل إلى بعض الآيات التى صورت هول البعث وشدته، وقيام الناس من قبورهم من ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

"فتول عنهم" أى أعرض عن المشركين، فإن الإنذار لا يجدى معهم، وهذا تسلية للرسول ﷺ وهذه الجملة متممة لما قبلها، وابتدأ بكلام جديد متعلق بأول السورة، وهو اقتراب الساعة، فى وصف مشهد من مشاهدها حين يخرج الموتى من قبورهم فى موقف كله إنذار وشدة ورعب انكر "يوم يدع الداع إلى شىء نكر" أى منكر فظيع تتكره النفوس لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة، وكلمة "نُكُر" فيها غرابة فى الاشتقاق، وقلة فى الوزن، وندرة فى الصفات، وشدة فى النطق وهى

---

(١) انظر الكشاف وحاشيته جـ٣ ص١٢، والتصوير البيانى ص٨٩.

توحى بغرابة ما يشاهد فى هذا اليوم، وصعوبته وثقله وشدته، تأمل الضمتين على الحرفين الأول والثانى، وما فيهما من معنى ارتفاع الشدة.

"خُشَّعاً أبصارهم" حال من فاعل "يخرجون" والتقديم؛ لأن العامل متصرف أى يخرجون من الأجداث أذلة أبصارهم من شدة الهون، "فخشعا أبصارهم" كناية عن الذلة والمهانة، وهى -كما يقول أبو حيان:(١) "فى العيون أظهر منها فى سائر الجوارح، وكذلك أحوال النفس من ذلة وعزة وحياء وصلف وغير ذلك".

"كأنهم جراد منتشر" شبه خروجهم من القبور وانتشارهم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج والتدفع والتفرق فى الأقطار، الكل يتحرك، ويموج من غير تحديد، ومن غير تعقل، يقال: "جاء كالجراد فى الجيش الكثير المتوج" "مهطعين إلى الداع" أى مسرعين، وهى أبلغ وأقوى من مسرعين لما فيها من زيادة المعنى، وهو الإسراع مع مد العنق، وخفض العين فى ذلة وإزهاق وهو تعبير مصور، يقول الدكتور محمد أبو موسى(٢): "وانظر إلى هذا التعبير المصور فى قوله "مهطعين إلى الداع" وكيف ترى جميع ولد آدم وأعناقهم ممدودة جادين مسرعين إلى الداع، حاول أن تستحضر صورة هذا الجمع الحاشد، وهم فى حال الذل والخشوع، والتفرق المنتشر وأعناقهم ممدودة جادين نحو الداعى الذى

---

(١) البحر المحيط جـ٨ ص١٧٥.

(٢) التصوير البيانى ص٢٩.

يدعو إلى ماذا؟ يدعو إلى هول منكر فظيع، هذا انقياد واستسلام مطلق" والصورة التشبيهية جاءت حادة النبرة شديدة الإيقاع، تتناسب مع صورة الإنذار للكافرين، الذى يثير الرعب والخوف والفزع والهلع والرهبة، ولدقة هذا المشهد وقوة الشبه استعمل "كأن".

وهناك صورة أخرى تؤدى هذا المعنى إلا أنه استعملت فيها الكاف بدل كأن وذلك فى سورة القارعة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٣، ٤]

وهذه الصورة تختلف عن الصورة السابقة التى اشتملت على وصف المشهد حين خروج الناس من قبورهم، أما هذه الصورة فهى تصور مرحلة من مراحل الوهن والضعف والشتات والتفرق، يحدث بعد المشهد الأول. والفراش: الطير يتساقط فى النار، ولا يزل يقتحم على المصباح ونحوه، يقول أبو حيان:(١) "شبهوا فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجيء والذهاب على غير نظام، والتطاير إلى الداعى من كل جهة حين يدعوهم إلى ناحية المحشر كالفراش المتطاير إلى النار قال جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه ... مثل الفراش عشين نار المصطلى

وقرن بين الناس والجبال تنبيها على تأثير تلك القارعة فى الجبال حتى صارت كالعهن المنفوش فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها"

---

(١) البحر المحيط جـ٨ ص٥٠٦، ٥٠٧.

ويقول الزمخشري:[1] "وفي أمثالهم: أضعف من فراشه، وأذل وأجهل، وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره، وشبه الجبال بالعهن المنفوش، وهو الصوف المصبغ ألوانا؛ لأنها ألوان، وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها".

ونلاحظ أن الكلمات هنا قوية الجرس طويلة الإيقاع متوالية المد، تمثل طول اليوم، وانتشار الناس، وتمدد الجبال.

وهذه الصورة تمثل ضعف الإنسان، وذهوله ووهنه وذلته في ذلك اليوم الذي تصير فيه الجبال كالعهن المنفوش متفرقة بعد تماسكها الصلب فكيف بالإنسان الضعيف، وهي مرحلة تالية لمرحلة "الجراد المنتشر" حين يخرجون من الأجداث، ففي الجراد المنتشر فضل تماسك، حتى إذا طال الوقت، وهنت القوى، وتبددت العقول .. وحل الوهن والطيش، وانعدام التفكير، وجاءت مرحلة الفراش المبثوث في غير وعي، حيث يرمي الإنسان نفسه على المهالك، دون أن يدري، وهذا يمثل نهاية الإعياء، وانعدام الإدراك، والوقوع على الهلاك.

ولعلنا بعد هذا البيان الموجز نستطيع أن ندرك لماذا استعمل القرآن الكريم في الصورة الأولى "كأن" وفي الثانية الكاف؟.

ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول: لقوة الشبه في الصورة الأولى استعمل القرآن "كأن" لأنها تستعمل حيث يقوى التشبيه، والناس عندما يخرجون

---

(١) الكشاف جـ٤، ص٢٧٩.

من قبورهم -كل الناس من لدن آدم إلى يوم البعث- وعندهم القدرة والتحرك بإرادتهم، ولكن على غير هدى، هذه الصورة عند من يتأملها تشبه فعلا الجراد الكثير المنتشر بنفسه الذى يتحرك بإرادته، فالكثرة والتفرق والتماسك، والتحرك بالإرادة، ولكن على غير هدى موجودة تماماً فى المشبه والمشبه به، ولهذا كان المناسب هنا "كأن" أما الصورة الثانية فالناس كالفراش المبثوث فى الضعف والذلة والمهانة ولكنهم قد يترددون فى إلقاء أنفسهم فى النار كما يفعل الفراش الذى يلقى بنفسه دون تردد وباختياره، فهم لا يملكون هذه الصفة، وقد لا تكون لهم سرعة الفراش إلى الضوء، وذلك لهلعهم وخوفهم وهول ذلك اليوم، لعل هذا هو السر فى استخدام الكاف هنا - والله أعلم بمراده.

المهم أن التشبيه فى الصورتين فى أعلى درجات البلاغة من حيث دقة التصوير، وبيان الفروق الدقيقة، والمطابقة للواقع، وخلود الصورة وشيوعها فى كل زمان، ومكان ... وتصوير المشاهد فى صدق بعيد عن المبالغة والإغراق.

وبعد هذا الموقف، موقف الهلع والخوف والفزع والرهبة، ينصرف الناس إلى دار الخلود الجنة، أو النار ولذا نذكر بعض الآيات التى صورت لنا هول جهنم وما فيها من شقاء لأهلها، وبعض الآيات التى صورت الجنة وما فيها من نعيم لأهلها.

ومن الآيات التى صورت نار جهنم قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ

كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣].

الشرر قطع من النار تتطاير فى الجهات، وأصله الظهور من قولك: شررت الثوب إذا أظهرته للشمس "كالقصر" أى كل شررة كالقصر من القصور فى عظمها، وقيل: هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة نحو جمرة، وجمر، وهى توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معا، وقرأ بعضهم "إنها ترمى بشرر كالقصر" بفتحتين، وهى أعناق الإبل، أو أعناق النخيل نحو: شجرة وشجر قال صاحب الجمان:(١) "وهو تشبيه حسن؛ لأن العرب تستعير ذلك فى وصف النار، فيقولون: بوزت أعناق الغيران، كما يقولون: برزت ذوائبها، وألسنتها على طريق الاستعارة.

فكذلك شبه الله -تعالى- شرر جهنم بها تعظيما له وتهويلا وإرهاباً منه وتخويفاً، وقد شبه بعضهم ناراً على البعد بسحر العود على عادتهم فى الاستطراد بذكر الإبل فى أكثر الأوصاف.

"كأنه جمالات صفر" بكسر الجيم جمع جمال أو جمالة، يقال: جمل، وجمال، وجمالة جاء فى اللسان: جمل الجمل: أجمال، وجمال، وجمل، وجمالات، وجمالة، وجمائل قال ذو الرمة:

وقرين بالرزق الجمائل بعدها ... تقوب عن غربان أوراكها الخطر

---

(١) الجمان فى تشبيهات القرآن ص٣٤١.

"صفر" يقال للإبل السود التى تضرب إلى الصفرة: هى إبل صفر قال الأعشى:

تلك خيلى منه وتلك ركابى هى صفر أولادها كالزبيب

"صفر" سود قاله صاحب اللسان، ثم أتبع ذلك معللا: ولا يرى أسود منها إلا هو مشوب بصفرة".

فشبه شرر جهنم فى الأول بالقصر فى العظم، وبالجمالات الصفر فى السواد فشبه فى اللون، وفى العظم، والعرب تشبه الإبل بالقصور ذهاباً إلى تمام خلقها وحسن صورتها.

وقرئ "جُمالات" بالضم، وهى قلوس الجسور، وقيل: "قلوس سفن البحر، .. ويكون التشبيه كالآتى: شبه شرر جهنم بالقصر وهو الحصن -كما قال الزمخشرى[1]- من جهتين: من جهة العظم، ومن جهة الطول فى الهواء، فى التشبيه بالجمالات وهى القلوس تشبيه من ثلاث جهات: من جهة العظم والطول، والصفرة".

والغرض من التشبيه إدخال الرعب والفزع والخوف فى قلوب الكفار من نار جهنم، يوضح ذلك التصوير الذى يصور شررها كالقصر فى العظم، وكالجمال السود فى اللون، فهذا يوحى إلى النفس بالضخامة والرهبة والتشبيه على هذا النحو من غير حرف عطف آكد، وأبلغ فى

---

(١) الكشاف جـ٤ ص٢٠٤.

نعته من التشبيه المعطوف، وفى استعمال "كأن" ما يشير إلى قوة الشبه، لأن النار كلما اشتدت وقويت ظهر سوادها بشكل واضح.

ومن الآيات التى صورت طعام أهل جهنم بصورة بشعة تنفر منها النفس قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٥].

"نزلا" وأصل النزل: الفضل والريع فى الطعام يقال: طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشىء وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، ونصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً كما تقول: أثمر النخلة خير بلحا أم رطباً؟ يعنى الرزق المعلوم نزل أهل الجنة،وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فأيهما خير فى كونه نزلا... ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم[1]. والزقوم: كل ما أكل بتكره شديد، ولهذا يقال: قد تزقم هذا الطعام تزقما أى هى فى حكم ما أكله بتكره شديد، لأنه يحشو به فمه، ويأكله بشره فيه "فتنة للظالمين" محنة وعذاباً لهم فى الآخرة، أو ابتلاء لهم فى الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون فى النار شجرة، والنار تحرق الشجر لذلك

---

(١) انظر الكشاف جـ٣ ص٣٤٢.

قال – سبحانه ... ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ..﴾ [الإسراء: ٦٠].

يعنى الملعون آكلها، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦].

وقرئ نابتة "فى أصل الجحيم" قيل: منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها "طلعها" أى حملها الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل، والطلوع من الشجر، قالوا: أول الثمر طلع، ثم خلال، ثم بلح ثم بسر، ثم رطب، ثم تمر.

"كأنه رءوس الشياطين" شبه القرآن الكريم طلع شجرة الزقوم – وهذا مجهول لهم– برءوس الشياطين –وهذا مجهول أيضا– وإنما يكون التشبيه بالجلى ليكشف المشبه لا بالخفى حتى لا يزداد خفاء، وهذا التشبيه مع خفائه .. يعطى التهويل والرعب والخوف والتنفير، وتنوع التصوير ... فكل سامع يتصور رءوس الشياطين بتصور مخالف للآخر فتتعدد صور القبح .. ويزداد النفور والخوف والهول والفزع.

فالغرض من التشبيه يتعدى المعرفة بالمشبه به إلى ما هو أهم، إلى إثارة ناحية نفسية من التهويل والفزع والرعب والخوف فى صورة

صاحب [illegible] الشيطان

وإنما يفيد الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف. [illegible]

إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم [illegible] امرئ القيس:

(١) الكشاف جـ٣ ص٣٤٢.

(٢) انظر القصة كاملة في معجم الأدباء جـ١٩ ص١٥٨.

أيقتلنـــي والمشـــرفي مضـــاجعي ومســـنونة زرق كأنيـــاب أغـــوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعـــدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل.

هذا ما تطمئن إليه النفس وتستريح له، وقد ذكر الخطيـــب الآيـــة وبيت امرئ القيس وجعلها من التشبيه الوهمي، وهو ما ليـــس مدركـــاً بشيء من الحواس الخمس مع أنه لو أدرك لم يدرك إلا بها[1]. والجاحظ يؤيد هذا الرأى وينص عليه ويرفض ما عداه، وله كلام جيد فـــي هـــذا المعنى ذكرناه فى كتابنا "البيان القرآنى عند الجاحظ"[2].

وذكر الزمخشرى آراء أخرى فى "رءوس الشياطين" منها: قيـــل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلـــة جـــداً، وقيـــل: إن شجراً يقال له: الأستن خشنا منتنا مراً منكر الصورة يسمى ثمره رءوس الشياطين، وما سمت العرب هذا الثمر رءوس الشياطين إلا قصداً إلـــى أحد التشبيهين، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به"[3].

وقيل: غير ذلك فقد روى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: كان لأهل مكة جبال قبيحة المنظر، وكانوا يسمونها رءوس الشـــياطين

---

(١) البغية جـ٣ ص١٧.

(٢) انظر البيان القرآنى ص١٢٣-١٢٩.

(٣) انظر الكشاف جـ٣ ص٣٤٢ والبحر المحيط جـ٧ ص٢٦٣، وحاشية الشهاب جـ٧ ص٢٧٣.

لقبحها إذا نظروا إليها، فشبه لهم ثمر الزقوم بتلك الجبال"[١].

واستعمال "كأن" يدل على قوة الشبه فى إلحاق المشبه بالمشبه به الذى يوحى بقوة الرعب والفزع والخوف ...

وإذا كنا قد ذكرنا بعض الصور التى صورت النار، وما فيها من ترهيب وتنفير، فلنقرن ذلك ببعض الآيات التى صورت أهل الجنة، وما فيها من ترغيب، كما يفعل القرآن الكريم ففى مواطن كثيرة يعقد هذه المقارنة، ومن الآيات التى وردت فى وصف نساء أهل الجنة قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

أى قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمدون طرفا إلى غيرهم مع حسن عيونهن، لأن "عين" معناها نجل العيون جمع عيناء، والنجل سعة العين "كأنهن بيض مكنون" شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه، فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة، فإن ذلك أحسن ألوان الأبدان، وفى كلمة "مكنون" ما يوحى بهذا المعنى ويؤكده، فهن فى ستر وكن عن التبرج، وهذا غاية فى مناسبة الوصف ومطابقته، وبلاغة معنى التشبيه وموافقته، قال صاحب الجمان:[٢] "وقد تناقل الشعراء هذا

---

(١) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن، ص٢٣٨.

(٢) الجمان فى تشبيهات القرآن ص٢٤٣.

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٦-٥٨].

وهذا التشبيه هو ما يطلق عليه البلاغيون تشبيه الجمع، وهو التشبيه الذى يتعدد فيه المشبه به دون المشبه، وسمى تشبيه جمع لاجتماع شيئين أو أشياء فى مشابهة شىء واحد. فقد شبه الحور العين بالياقوت فى صفائه، وبالمرجان، وهى صغار اللؤلؤ فى بياضه. هذا ما عليه كثير من المفسرين ولكن صاحب الجمان لم يوافق على تفسير "المرجان" بصغار اللؤلؤ: قال[1]: وقال قوم: إن المرجان صغار اللؤلؤ، ولا يصح ما قالوا؛ لأن المرجان جنس آخر وهو أحمر اللون ينشأ فى قرار البحر متشجراً، ويخرج بالكلاليب قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ولو كان كما ذكروا لم يكن فى هذا التكرير فائدة، والمعنى شبههم بالمرجان ليدل ذلك على تشبيههم بالياقوت الأحمر، وهو أحسن الياقوت وقد قال بشار.

هجان عليها حمرة فى بياضها ... تروق بها العينين والحسن أحمر

وأحسن ما شبه احمرار اللون بالياقوت كما قال أبو نواس فى تشبيه الخمر حين وصف لونها:

---

(١) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص٢٩٣، ٢٩٤.

كأس إذا انحدرت فى حلق شاربها أجدته حمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كف جارية معتوقة القد

وأميل إلى هذا الرأى لأن العطف يقتضى المغايرة، ولأنه لو حمل "المرجان" على أنه اللؤلؤ لكان فى قوله -تعالى- "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" تكراراً لا فائدة فيه .... المهم أن التشبيه فى أعلى درجات البلاغة من حيث دقة التصوير، واستعمال "كأن" التى تدل على قوة الشبه فى إلحاق المشبه بالمشبه به، وهنا يأتى الترغيب الذى يحث الناس على العمل الصالح الذى يؤول بهم إلى الجنة والتمتع بالحور العين.

وقد شبهت العرب النساء فى حسنهن بالياقوت، وسمتهن باسمه وأنشد الخليل:

إنما الذلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان

وقال عبد الله بن طاهر، واعتمد على لفظ القرآن:

هى كالدرة المصونة فى صفاء الياقوت والمرجان

وقالوا فى أسماء النساء: ياقوتة، كما قالوا فى تسميتهن لؤلؤة ومرجانة، وذلك مثل ما ذكروا فى وصف زينتهن كقول النابغة:

بالدر والياقوت زين نحرها ومفصل من لؤلؤ وزبرجد

وغير ذلك الكثير[1]، ولكن هيهات أن يصلوا إلى بلاغة القرآن.

---

(١) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص٢٩٤، ٢٩٥.

وقد علق الدكتور أحمد بدوى على هذه الآيات بقوله: "فليس فى اليـاقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون، لون فحسب، وإنما هو لون صاف حى فيـه نقاء وهدوء وهى أحجار كريمة تصان ويحرص عليها، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتـهن، فقربـت بذلك الصلة، واشتد الارتباط.

أما الصلة التى تربطهن بالبيض المكنون، فضلا عن نقاء اللـون، فهى هذا الرفق والحذر الذى يجب أن يعامل به كلاهما، أو لا ترى فـى هذا الكن أيضا صلة تجمع بينهما، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابـط والجامع، ولكن للنفس نصيب أى نصيب".

ونختم الحديث عن "كأن" وأسرارها فى القرآن الكريم بقـول الله – عز وجل– ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَـاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَـةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُـورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

و"الله نور السموات والأرض..." النور: الضوء المدرك بـالبصر، وإسناده إلى الله مجاز كما تقول: زيد كرم، وإسناده على اعتبارين: إمـا على أنه اسم فاعل أى منور السموات والأرض، وإمـا علـى حـذف مضاف أى ذو نور، ويؤيده قوله "مثل نوره" وأضاف النور للسـموات

والأرض للدلالة على سعة إشراقه، وفشو إضاءته حتى تضئ له السموات والأرض.

ومثل نوره "أى تنويره بالإيمان قلوب المؤمنين، فأضاف النور إليه -جل اسمه- كما يقولون: هذا أدب الله أى تأديبه، وقيل: مثل نور القرآن، فكنى عنه ولم يجر له ذكر قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وكما قال: "حتى توارت بالحجاب". وقال أوس بن حجر:

وغيرها عن وصلنا الشيب إنه شفيع إلى البيض الحسان مجرب

يعنى الشباب ...!!!

"كمشكاة" المشكاة فى كلام العرب هى الكوة التى لا منفذ لها وأنشد:

تدير عينين لها نجلاوين كمثل مشكاتى مصباحين

وقيل: هى كلمة حبشية معربة، وبه قال الكلبى، فهى من جملة ما أعربته العرب من اللغات، فغيرته، ونطقت به فصار كلغتها، ومنه قول الحارث بن حلزة:

لمن الديار عفت بذى الحلس آياتها كمهارق الفرس

المهارق جمع مهرق وهى الصحيفة، وهى كلمة فارسية.

وقيل: هى عمود القنديل الذى يكون فيه الفتيل[1]. وهو على حذف

---

(١) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص١٦٣.

مضاف أى صفة نوره كنور مشكاة "فيها مصباح" والمصباح آلة يستصبح بها كالمفتاح آلة للفتح، والزجاج ظرف للمصباح لقوله: "المصباح فى زجاجة" "كأنها" أى كأن الزجاجة لصفاء جوهرها وذاتها، وهى أبلغ فى الإنارة، ولما احتوت عليه من نور المصباح، "كأنها كوكب درى" متلألئ وقّاد شبيه بالدر فى صفائه وزهرته، ودرارى الكواكب عظامها المشهورة كالمشترى، والزهرة، والمريخ، وسهيل ...الخ وفى إعادة المصباح والزجاجة معرفين إثر سبقهما منكرين والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام، بأن يقال: كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شأنهما، ورفع مكانهما بالتفسير إثر الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبئ عن القصد الأصلى دون الوصف المبنى على الإشارة إلى الثبوت فى الجملة مالا يخفى، ومحل الجملة الأولى الرفع على أنها صفة لمصباح، ومحل الثانية الجر على أنها صفة لزجاجة، واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل: فيها مصباح هو فى زجاجة هى كأنها كوكب درى"[1].

وتشبيه الزجاجة بالكوكب الدرى فيه زيادة فى صفة نور المصباح، وإضاءته ومبالغة فى نعت إشراقه وتألقه. وقد شبه الشعراء النجوم بالمصابيح، قال امرؤ القيس:

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

---

(١) انظر كتب التفسير خاصة تفسير أبى السعود جـ٦ ص١٧٦، والكشاف جـ٣ ص٦٧، وحاشية الشهاب جـ٦ ص٣٨١.

وشبهوا المصابيح بالنجوم، وكذلك النار على البعد، وأكثروا فى تشبيه النجوم بالدر، وشبهوا أيضاً الدر بالنجوم[١].

وفى استعمال "كأن" ما يدل على قوة الشبه، لأنها أقوى أدوات التشبيه.

"يوقد من شجرة مباركة ..." قرئ بالتذكير والتأنيث، فمن ذكر عنى المصباح ومن أنَّث عنى الزجاجة، وقيل فى قوله: "مباركة" أنه ليس فى الشجر شىء يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان قال الشاعر:

بورك الميت الغريب كما بو ... رك نضح الرمان والزيتون

"لا شرقية ولا غربية" أى لا يسترها عن الشمس فى وقت النهار شىء فهى شرقية غربية، والشمس تصيبها بالغداة والعشى، فهو أنضر لها وأجود لزيتها، وقال الحسن: لا شرقية ولا غربية أى أنها ليست من شجر الدنيا وإنما هى من شجر الجنة[٢].

"يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار" يعنى من صفائه، وهذا من أبلغ الوصف، وكاد تجىء للمقاربة، وهى التى زادت الكلام جمالاً وقربته من الوقوع؛ لأن إضاءة الزيت كإضاءة المصباح من غير أن تمسه النار غير ممكن، ولكن إدخال "يكاد" هذا أفاد أنه لم يقع ولكنه قرب

---

(١) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص١٦٦-١٦٩.

(٢) انظر الجمان فى تشبيهات القرآن ص١٦٩.

من الوقوع مبالغة، ومثله قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣] فخطف البرق الأبصار غير ممكن عادة، ولكن الذى جعله ممكنا وزاده جمالاً هو تقريبه إلى الصحة بلفظة "يكاد" واقتران هذه الجملة بها هو الذى صرفها إلى الحقيقة فقلبت من الامتناع إلى الإمكان.

أ.د/ هاشم محمد هاشم

وكيل الكلية

التشبيه فقال العبادى(١):

كدمى العاج فى المحاريب أو كالـــ بيض فى الروض زهره مســـتنير

وقد استحسن هذا البيت جماعة من أصحاب المعانى، وذكروا فيــه أنه شبه ألوان الثياب التى عليهن بألوان نور الرياض وزهرة: حمرتــه وصفرته، وجعل البيض فى الروض ليكون أحسن لـــه، وكذلــك قــالت الأوسية:

أحســن الأشــياء القصــور الــــ بيــض فــى الحدائــق الخضــر

إلا أنه لم يوصف البيض فى هذا الباب بأحسن ولا أجمع لمعـــانى الوصف مما نطق به التنزيل، فإن لفظة "مكنون" متضمنة معنى السلامة والخلوص من جميع العوارض التى تنقص رونقـــه، وتشــين بياضـــه، وتكشف بهاءه.

وهذه الجملة زيادة على ما ذكره الشاعر، لأن نساء الجنة يستغنين عن الوصف الذى أشار بالتشبيه إليه، إذ كانت الجنة أنضر من الـــروض حسنا وأبهى منظراً" وأضيف إلى ذلك أن الشاعر استعمل الكـــاف فـــى التشبيه أما القرآن الكريم فقد استعمل "كأن" التى تدل على قوة الشبه فـــى إلحاق المشبه بالمشبه به، وهذه دقة فى التعبير.

وشبههن فى آية أخرى بالياقوت والمرجان قال تعـــالى: ﴿فيــهنّ

---

(١) شاعر جاهلى أخباره فى الأغانى جـــ٢ ص٩٧.